



العقل العربي 61

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الخامس عشر

مسألة الركود العربي

4. الركود الحضاري والقومية

تكاد فكرة الركود الحضاري في الفترة (ما بين عظمة أوائل العصر الوسيط والنهضة العربية الحديثة) تشكل أساس معالجة مواضيع القومية العربية لدى الكاتب حازم زكي نسبية. فهو يقول بأن مدة طويلة من قرون عديدة من الركود الحضاري التي تلت الفتح التركي للبلاد العربية، اتصف خلالها العرب باللامبالاة والتبعية المشينة؛ ونشأ مجتمع ساكن تمثلت صفاته الأساسية بالعجز عن التغيير والتمسك بالأعراف وتقليد الآخرين، وتشبعت كافة مناحي الحياة بالركود والإحجام عن المبادرة؛ ومع أنه من غير اليسير تقصي أسباب الفقر الروحي الأساسي الذي كان منبع الانحطاط التالي، فإن سببين اثنين يمكن تمييزهما كأول حلقتين في سلسلة الأحداث التي أدت إلى اضمحلال العالم العربي وتحجره. وهما: فقدان العرب للقوة، وانحدار الدين إلى أنماط شكلية؛ ونتيجة لذلك أصبح النظام الاجتماعي متشبعا باللامبالاة والسكون المجهد وانعدام الاهتمام. واستمر هذا الحال حتى جاءت صدمة الغرب بالإحياء الحديث للعالم الناطق بالعربية.¹

إن الفكرة الأخيرة التي تناولها نسبية كانت محل تطوير من قبل منيف الرزاز، وهو أمين عام سابق لحزب البعث في سوريا. وتعطي معالجة الرزاز للفكرة انطبعا بأن العرب كانوا ليستمروا في ركودهم ما لم تنتشلهم صدمة الغرب. وهو يرى أن القومية العربية ولدت استجابة لتحدي الاستعمار الغربي، وفي البدء كانت ذات شخصية سلبية تحولت في ما بعد إلى إيجابية. وتولت مسؤولية تحويل الشخصية المتخلفة لمجتمعها وخلق أمة عربية جديدة تقدمية؛ فمنذ القرن التاسع فصاعدا ساءت أحوال المجتمع المسلم وأصبح

(1) حازم زكي نسبية: أفكار القومية العربية، ص 35-42.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

خاملاً خامدا مغروراً أعيقت فيه روح الإبداع. وكان لهذه الحال أن تستمر إن لم يطرأ عليها محفز جديد يقلق التوازن المستمر. لكن المحفز جاء من الاستعمار الغربي. وأدى الاكتشاف المفاجئ للمعنى الحقيقي لأوروبا والحضارة الغربية إلى اهتزاز العالم العربي الإسلامي الغارق في السبات والرضى عن الذات والذي فقد قوته الدافعة؛ وهذه الظروف أجبرت العرب على إجراء تحليل مؤلم للذات. فيما أنهم غير قادرين على تصديق أن قيم «الكافر» أفضل من قيم «المؤمن». قاموا باختراع وقبول تفسير يفترض أن المسلمين شوهوا لوقت طويل قيمهم ذاتها وفي مجتمعاتهم هم. وأن القيم السائدة في العالم العربي تختلف بحق عن تعاليم الإسلام قبل قرون؛ وهذا بدوره تطلب منهم إعادة تقييم تراثهم. وإعادة اكتشاف القيم القديمة. وتنقية الإسلام. وهكذا ولدت حركات الإحياء الديني في العالم العربي الإسلامي. فما كان الفشل في السابق إلا لأن السيل الأوروبي لا تمكن مواجهته بغير أفكاره وقيمه ذاتها. وهذا الإدراك أدى إلى فهم جديد لمعنى الحضارة الغربية: فهي، بالإضافة إلى التسليح الحديث والجيوش المتطورة. تمثل نظرات في الحرية والعدالة والصناعة والتعليم والإدارة الحديثة ومفهوماً جديداً للقومية تحل فيه روابط الثقافة واللغة المشتركة محل رابطة الدين القديمة. حتى أن نضال العرب من أجل الاستقلال تمت استعارته من الغرب. فهم ناضلوا لتحقيق الاستقلال من أجل نيل القدرة على تأسيس حكومات ومجتمعات مشابهة لمثيلاتها في الغرب. وبعد الحرب العالمية الثانية اكتشف القوميون العرب وميزوا مشكلة التنمية الاجتماعية على أنها جزء من الحركة نفسها. وأصبح المجتمع العربي بعدها جاهزاً لأفكار اشتراكية وماركسية بطبيعتها. وبالأخص ما كان منها متوافقاً مع أفكار القومية. فانقلبت الجماهير العربية على نخبها الحاكمة. والتي كانت في نظرها رجعية وفسادة وغير كفوءة وتخاف من تحرر الجماهير وترتبط مباشرة بالحكومات الغربية ونظامها الرأسمالي. كما أدت الهزائم المتلاحقة للعرب أمام إسرائيل إلى تقوية قلة إيمان العرب بحكوماتهم وعززت حماسها الثوري. لكن المجموعات العسكرية في الدول العربية قامت بشرعنة وجودها بحجة التهديد العسكري الدايم من قبل الصهيونية. وهذا بدوره

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

أدى إلى تشويه حركة القومية العربية. أما القومية العربية الحقيقية، ممثلة بحزب البعث، فهي برأي الرزاز:

القوة المحركة للعرب في صراعهم لخلق أمة تقدمية موحدة تستطيع الوقوف على قدميها بين الأمم. لقد ولدت هذه الأمة كرد فعل على تحديات الاستعمار الغربي، ولكنها امتدت خارج حدود رد الفعل وأصبحت حركة أصيلة لها جدارتها الخاصة بها.

وإذا أردنا تلخيص آراء الرزاز فيمكننا أن نقول بأنه يفترض أنه لولا صدمة الغرب لبقي العرب على حالة الانحطاط في العصور الوسطى بما فيها من ركود واكتفاء مغتر. ولكن الاتصال بالغرب أمدهم بالقوة المحركة لنقلهم إلى نهضة اجتماعية وقومية جديدة.¹

ثمة كاتب عربي آخر تنبغي الإشارة إليه، ولكن باختصار: وهو حسن إبراهيم حسن الذي شغل منصب أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة ورئيس جامعة أسيوط. والذي تناول مسألة ركود المسلمين في خضم دراسته العميقة للإسلام من الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ وكغيره من الباحثين العرب الذين يناقشون هذه المسألة. يأخذ هذا الكاتب قضية الركود الحضاري باعتبارها من المسلمات، وبالتالي لا يزعم نفسه بمناقشتها، وعوضاً عن ذلك، تجده يورد بضع كلمات في شرحها:

إن تخلف الأمم الإسلامية لا يمكن أن يعزى عموماً إلى العقيدة ذاتها. وإنما إلى عوامل سياسية عالمية كالاستعمار الغربي والجهود الحثيثة لبعثاته التبشيرية.²

(1) راجع كتابي الرزاز: القومية العربية: وتطور معنى القومية.

(2) حسن إبراهيم حسن: الإسلام... دراسة دينية سياسية اجتماعية اقتصادية: ص532.